مجلة التراث

J-ALT

2017/ Vol:7 N°04

Available online at http://www.asjp.cerist.dz

الحجاج في الخطاب الساخر
في " لزوميات " أبي العلاء المعري

الأستاذة : نبيلة نصاح

قسم اللغة العربية وآدابها جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي–

الملخص

سعى هذا البحث إلى كشف مسارات السخرية في ديوان " لزوم مالا يلزم " لأبي العلاء المعري فقد شكلت السخرية الأدبية أهم الأساليب الفينة بروزا في الديوان، لأنها ترجمان لحالة الاغتراب والألم الدفين، حيث خاض المعري صراعا مريرا مع مجتمعه العباسي وهكذا أصبحت السخرية في اللزوميات ضربا من المواجهة وثورة على ما هو سائد، فنحت بالنص اللزومي منحا حجاجيا بغية الإقناع فكان البحث في كيفية اشتغال الحجاج في إطار النص الشعري الساخر .

مقدِّمـــــــــة

عرفت المجتمعات البشرية السخرية منذ الأزل، فنشأت في بداياتها في كنف الفلسفة الإغريقية، ثم انتقلت إلى الحقل الأدبي، وظهر ما يعرف بالأدب الساخر.

فالشعور بالألم الذي يتجرعه الشاعر أوالأديب دافع إلى السخرية لاسيما إذاأحس المبدع منهما عدم قدرته على الخلاص من هذا الألم.

لذلك يعد الأدب الساخر " احد علامات التحذير من أخطار الممارسات الخاطئة، أو هو شكل من أشكال المقاومة "[1]، هو نداء التمرد على سلبية الواقع وإعلان الرفض على ما هو سائد والدعوة لما يجب أن يسود.

ومن ثمة فإن "الهدف الأوليللأدب الساخر هو هدف تصحيحي، سواء على المستوى الأخلاقيأوالمستوى الجمالي"[2] ما يسم السخرية بأنها مركب من الهجاء، والتهكم، والذم، والفكاهة، والهزل، والنكتة.

فالسخرية في الأدب هي "العنصر الذي يحتوي على توليفة درامية، من النقد، والهجاء، والتلميح، واللماحية، والتهكم، والدعابة، وذلك بهدف التعريض بشخص ما، أو مبدأ ما، أو فكرة ما، أو أ ي شيء، وتعريته بإلقاء الأضواء على الثغرات والسلبيات وأوجه القصور فيه " [3]، الأمر الذي يفسر أن الشاعر الساخر صاحب رسالة مهموم بقضايا المجتمع، والسخرية في معتقده لا تعني الضحك من أجل الضحك، وإنما هي عزف على أوتار الألم لأوجاع الوطن والمجتمع.

بواعث السخرية في اللزوميات :

لقد فتح ما وصل إليه المجتمع العباسي مت ترد، أبواب المواجهة والصراع على مصراعيه، بين أفراد مجتمع غلبت عليه المادية، فاضمحلت فيه القيم والمبادئ، واختلت موازين الأولويات فيه، وبين المعري الفيلسوف الشاعر المصلح، فاتسعت هوة الاختلاف الفكري بينهما.

وفي هذا الجو المشحون بالاختلاف والخلاف، انبثق الخطاب الساخر من رحم أزمة مجتمع يهوي إلىالأسفل الدرك دون أن يدرك أنه في طريق الهاوية، فكانت السخرية في اللزوميات شكلا من أشكال المقاومة، من أجل التغيير، ومن أجل إثبات قوة الذات المتكلمة.

"فالسخرية في أسمى صورها آلية دفاعية ضد القهر"[4] ما يمنحها شرعية الاعتراف بها كخطاب حجاجي يتوخى قيم الحق والخير.

وعليه تتأسس الأسئلة التالية:

- هل السخرية في اللزوميات ذات أبعادإقناعية ؟
- ثم ما حدود الإقناعية في خطاب اللزوميات ؟
- وكيف صير المعري خطابه الساخر خطابا حجاجيا ؟

السخرية في الإطار الحجاجي :

تميزت نصوص اللزوميات بالإقناعية و"الإقناع عند علماء الحجاج هو التواصل لغاية تغيير سلوك أو موقف"[5]، وقد اتخذ المعري السخرية آلية أسلوبية لتدعيم وتقوية موقفه الحجاجي، لأنها "آلية حجاجية" [6]، إذأشار اللسانيون التداوليون "لبعدها الإقناعي"[7]، وهكذا كان الخطاب الساخر في اللزوميات يتوخى تنوير العقول وتحرير الذات الإنسانية من سلطان الهوى وسطوة الشر .

ففي حقيقة السخرية تبدو "ظاهرة للخطاب، من حيث إعادتهاالأوامر مع قوة الكلمة في بعدها التواصلي، و نشدانها التأثير في مستمعيها والإقناع بطروحاتها، ومن ثمة يأتي التفكير في التوجه الإقناعي للسخرية " [8]، فسلوك اللغة في الخطاب الساخر في جوهره ينحى منحى التأثير في المخاطبين وغايته تعديل سلوك أو تغيير موقف، لأننا " نتكلم عامة بقصد التأثير، وأن الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج، وأن المعنى ذو طبيعة حجاجية " [9]، وتفسير ذلك أننا نستعمل اللغة لتحقيق منافع، وهذه المنافع متعددة الأوجه، كأن يعبر بها عن المشاعر، أو الوصف، أو الأخبار، وهذا لا يمنع تلك الأخباروالأوصافأن تثير المتلقي وتحفزه، حتى في تلك الخطابات التي تنبئ بنيتها السطحية خلاف ذلك، لأن العملية التواصلية مرتبطة بمقاصد المتكلم وأهدافه من الكلام، وهذه المقاصد في جل أحوالها تنعقد على غاية التأثير والإقناع .

وهذا الطرح يشرح المبدأ الذي انطلق منه ديكرو "بأن قيمة القول الإبلاغية ثانوية بالنسبة إلى قيمته الحجاجية التي تعتبر أولية "[10]، وتفسير ذلك أن "القضايا في الحجاج تأتي مصاغة بطريقة مبنية ومرتبطة بشكل منسجم، تظهر فيها كفاءة المتكلم الأسلوبية وقدراته التركيبية " [11]فضمنها طاقة حجاجية كون "البنى الحجاجية ليست ذات طبيعة منطقية، ولكنها لغوية بالأساس، داخلة في اللغة التي تحتوي في بنيتها على معلومات تتعلق بالحجاج " [12]. وعلى هذا النسق انبنى الحجاج في الخطاب الساخر في ديوان اللزوميات، فتعددت صوره وتنوعت أشكاله، لتتقوى حجاجية السخرية، لأن "القيمة الحجاجية للسخرية متعددة الملامح، تتراوح بين تجاوز المألوف والتظاهر، بين المواجهة (بما تثيره من انفعالات) والمواراة، بين الهزل والجد، بين يسر الضبط أن نهجت نهج التركيبات اللفظية التضادية، وعسره إذا ما جرت مجرى التضمين والتورية والتعريض "[13].

إن طبيعة نص اللزوميات تكشف عن الهدف المتوخى منه، بسبك ألفاظه في سياقات حجاجية تتوخى الإقناع، وهذا ما يبرر انتقاء الكلمات ذات الواقع الخاص، حيث أن تخير اللفظ شرط أساسي وأولي، لأنه يعني أن المتكلم البليغ هو الذي يفكر في الألفاظ الملائمة اللائقة التي تسمح لا بإبلاغ المعاني والمضامين فقط، بل وتسمح بالتأثير في السامع بخصائصها الذاتية أيضا"[14]، ومن ثمة عول المعري كثيرا على فعالية المفردة في إحداث التأثير الإقناع، بل مقارعة المخاطب بهذه الكلمة او تلك، فاستند على معيار الانتقاء . فكان المعجم الشعري نافذة نصية مهمة لفهم الأبعاد الحجاجية للسخرية في الديوان، فأصبحت المفردة "نواة دالة على إسهام هذا العنصر اللغوي المحدود في توليد طاقة حجاجية فعالة

ذات مدى بعيد في تبليغ مقاصد القول." [15] ومن المهم التذكير في هذا السياق أن سمة نصوص اللزوميات، أنها تقوم على مبدأين أساسيين هما: جمالية النص، أي شعرية الأسلوب، فتداولية الخطاب في جانبه الحجاجي.

تجليات السخرية في ديوان اللزوميات :

كما سبق القول فإن النصوص اللزوميات جمعت بين الحجاج وجمالية الأسلوب، حيث عولت على التنويعات التركيبية وكذا ثراء المعجم الشعري، لاسيما وان المعجم من أدوات الأسلوب البلاغي الذي يتوخى الإمتاعوالإقناع.

وفي هذا الإطار تبرز السخرية الأدبية بروزا ظاهرا في الديوان، حيث بين محمد العمري كيفية تموقعها على النحو الآتي[16]:

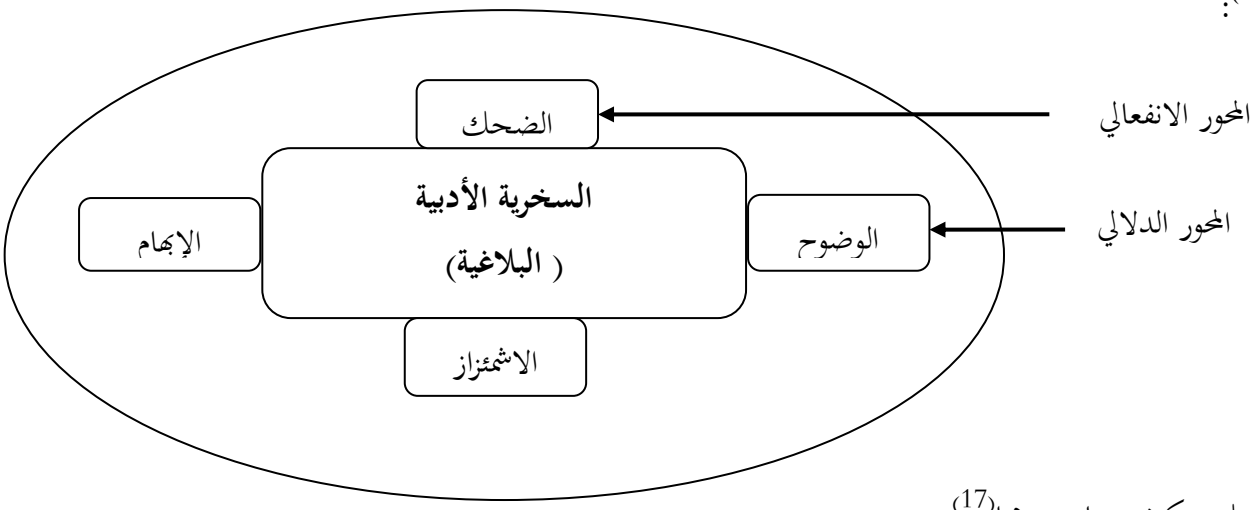

وتنبني على مكونين هامين، هما[17]:

1 - **المكون الانفعالي**: ويعني رغبة المتكلم في الاستخفاف أو الضحك، وقد يكون الاستهجان أو التهكم.

2 - **المكون اللساني**: ويتجلى من خلال المفارقة الدلالية وما يترتب عنها من غموض أوإلتباسوهكذا سيتم تقصي مسارات الخطاب الساخر في الديوان اعتبارا لهذه الخطاطة. تتأسس نجاعة الخطاب –هنا - استنادا للنزوع الفلسفي والمنحى الأخلاقي والنهج الإصلاحي، الأمر الذي وسم اللفظة في الديوان بالطابع التقويمي، إذ سعى المعري لإعادة بناء منظومة القيم، بترسيخ القيم الأخلاقية في المجتمع العباسي الذي انغمس في المادية، وبذلك راهن المعري على المعجم الشعري الذي نحى منحا حجاجيا في الديوان، ومن مظاهره، قوله:

مساجدكم ومواخيركم سواء فبعدا لكم من بشر [18]
وما أنتم بالنبات الحميد ولا بالنخـيل ولا بالعشـر
لكن قتـاد عديم الجناة كثيـر الأذاة أبى غير شر

تتجلى قوة حجاجية السخرية في استدعاء ألفاظ من حقل النبات، في حين أن المطلع يستوجب ألفاظا من الحقل الديني أو الحقل الأخلاقي، فنقطة الانعطاف هذه تشي بمقاصد المتكلم الذي يريد التأثير في مخاطبيه، وعليه فالكلمة المنتقاة "تكسب الخطاب الذي ترد فيه وقعا معنويا خاصا وبعدا حجاجيا أعمق في علاقته بمتلقيه " [19]، فهذا الانتقاء قام على التصوير، لتكون الصورة ماثلة مشاهدة مدركة في عالم الحواس: البصر، الشم، اللمس. فالنخيل معروف و" العشر من العضاة وهو من كبار الشجر، وله صمغ حلو، وهو عريض الورق ينبت صعدا في السماء، وله سكر يخرج من شعبه ومواضع زهره، وله نور مثل نور الدفلى مشرب مشرق حسن المظهر " [20]، أما "القتاد شجر ذو شوك لا تأكله الإبلإلا في عام جدب فيجيء الرجل فيضرم فيه النار حتى يحترق شوكه ثم يرعيه إبله، ومن صفاته أن له شوكا أمثال الإبر"[21]، وهكذا هي سخرية اشمئزاز، فالمعري قد ضجر من الناس فسخط عليهم وحط من شأنهم، فنفى أن يكونوا أهل خير "ما أنتم بالنبات الحميد، لا بالنخيل، ولا بالعشر". وأثبت حقيقتهم بأنهم "قتاد"، وهذا ما تكشف مع الرابط الحجاجي "لكن" وهي أداة استدراك دلت على الإيجاب بعد النفي "فكل خطاب تال لها هو الحجة الأقوى صوب الدعوى التي يدعيها المتكلم "[22] وهذا ما يجعل "الاستدراك سبيلا إلى منح الحجة التي بعدها قوة أكبر" [23]، وهذا ما يجعل الخطاب الساخر أقدر على التأثير في ذهن المخاطبين.

فالخطاب الساخر يعمد إلى انتقاء وتخير الكلمة التي من شأنها أن تحدث تأثيرا في ذهن المخاطبين، أن " الكلمة المختارة أعلق بعالم خطابهم وأمضى أثرا فيه بما لها من زوائد معنوية جاءتها من اللغة أو من الاستعمال أو منهما معا " [24]، لذلك درج المعري في سخريته على انتقاء اللفظ الذي يحقق أثرا، في نحو قوله:

يقولون هلا تشهد الجمع التي رجونابهاعفوا من الله أو قربا[25]

وهل لي خير في الحضور وإنما أزاحم من أخيارهم إبلا جربا

السخرية كآلية حجاجية تنبئ بالروح الانتقادية لدى المعري، الذي رفض الحياة الاجتماعية، وآثر العزلة، وهذا الرفض قاده لمواجهة المعتقدات السائدة وأنماط التفكير الراسخة، للتنبيه إلى مواطن الخلل، وإثارة ذهن المتلقي للتأمل فيما حوله، لتعديل سلوكاته ومواقفه.

وهذا ما يبرز مع الشاهد في البيتين، لترتسم معالم التهكم باستحضار لفظة "إبل" المقترنة بالصفة " جربا "، لتشبيه أخيار القوم بها.

فاللفظة القادمة من حقل الحيوان تكثفت طاقتها الحجاجية مع أسلوب القصر بالأداة "إنما"، وفي هذا الصدد يذكر الجرجاني " أعلم أن موضوع إنما على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة " [26]، ومن ثمة فما بعد "إنما" يقع ضمن المفاهيم المشتركة بين المتكلم والمخاطب، وهذا التوجيه الحجاجي محمل بالذم، لاسيما أن

المخاطب قد وضع موضع المساءلة، كونه يعلم أن أخيار القوم إبلا جربا، وهذا الخطاب يدفع به إلى التفكير مليا بغية تعديل سلوك أو تغيير موقف.

وهكذا، فالسخرية في اللزوميات، هي طريقة في التهكم والاشمئزاز من كل موجود بل من الوجود برمته، لتعكس حالة اليأس والتشاؤم الذي تمكن من المعري.

لذلك لم يتردد أن يقول:

إذا سألوا عن مذهبي فهو بين وهل أنا إلا مثل غيري أبله[27]

تفيد لفظة "أبله" المستقدمة من حقل الصفات الذميمة "ضعف العقل وغلبة العقلة "[28] وتنبئ حركية الجملة الشرطية أن المقام مقام فخر، خاصة في عبارة الجواب "فهو بين" لكن المعري يفاجئ المخاطب بإطلاق صفة "أبله"، كسر أفق توقع المخاطب. فالمتكلم اختار هذه الطريقة التعبيرية استهجانا وتهكما منه للحمق والغفلة المستشرين في المجتمع، وكذلك تتوالى صور الخطاب الساخر، في مثل قوله:

ت1- وأشرف من ترى في الأرض قدرا يعيش الدهر عبد فم وفرج[29]

ت2- وأشرف الناس في أعلى مراتبه مثل الصديد ولكن قيل ضديد[30]

في (ت1) ترتسم السخرية مع صيغة التفضيل "أشرف" المستدعاة من حقل الأخلاق الحميدة، وتدل في حقيقتها على أنها في أعلى السلم الحجاجي، لكن في اقترانها مع عبارة "عبد فم وفرج" انتقلت من أعلى إلى الدني في سلم القيم، وبذلك هي حجة على المخاطب لأنها وسيلة حجاجية لغاية الترتيب، ذلك أن "أفعل التفضيل يكمن دورها الحجاجي في أنه يتضمن صيغا تمكن المرسل من إيجاد العلاقة بين أطراف ليس بينها أي علاقة بطبعها كما أنه يمكنه من ترتيب الأشياء ترتيبا معينا، فبدون استعماله ما كان لها أن تترتب"[31]

وكذلك الحال في (ت 2) فصيغة التفضيل "أشرف" تفترض الأعلى في السلم، لكن باستحضار لفظة "الصديد" تتهاوى القيمة الحجاجية من أعلى إلى الأدنى، لتتكثف حجاجية التركيب مع الرابط " لكن " لإثبات ما قبلها وتنفي ما بعدها، وهذا في خضم التهكم الذي درج عليه المعري.

وهكذا فميزة الخطاب الساخر في اللزوميات هي إقناع المتلقي بوجهة نظر المتكلم استنادا إلى سلسلة الحجج التي يضمنها في نصه الشعري في شتى الموضوعات التي أرقته واهتم لها، ومنها سخريته من الأدباء، قائلا:

بني الآداب غرتكم قديما زخارف مثل زمزمة الذباب[32]

وما شعر اؤكم إلا ذئاب تلصص في المدائح والسباب

أضر لمن تود من الأعادي وأسرق للمقال من الزبلب

تحيل هذه السخرية طائفة من الأدباء على سمات الدناءة والوضاعة والحقارة، وتبدو الحجج في توظيف ألفاظ من حقل الحيوان والحشرات: الذباب، الذئاب، الزباب[33]، وهي تدعم دعوى المتكلم. فأسلوب التقرير الذي قام على المشابهة بين زخارف = زمزمة الذباب، الشعراء = ذئاب، وكذلك الشعراء = الزباب.

ثم القصر بـ (ما ... إلا) ومعلوم أن القصر توكيد، وكذلك صيغة التفضيل في : أضر، أسرق، جعلت القول يتجه "وجهة واحدة نحو الانخفاض"[34]في السلم الحجاجي :

استحقوا السخرية

إذن

أسرق للمقال من الزباب

أضر لمن تود من الاعادي

تلصص في المدائح والسباب

ما الشعراء إلا ذئاب

فالصورة قد تدرجت في سوق الصفات من السيئ إلىالأسوأ، تحريف الشعر عن مساره الإصلاحيالإنساني، إلى المدح والهجاء، المبالغة حد الكذب والإساءة، وكذا سرقة الأشعار، وهي من أبشع الصفات، لذا اقترنت بالزباب للحط من مكانتهم أكثر.

وختاما يمكن القول أن نجاعة الخطاب الساخر في اللزوميات قد تحققت اعتبارا لمبدأ الإقناعية، حيث أن المعري لم يعمد للسخرية بغية الضحك والهزل، بل جعل من خطابه الساخر رهانا لإحداث خلخلة في ذهن المتلقي، فاعتمد على تظافرها البلاغية، ومنها المعجم الشعري، حيث أدت اللفظة في الديوان دورا حجاجيا، فساهمت بخصائصها الذاتية، وكذا في تضافرها معنويا مع عناصر التركيب في المحاججة، وهنا يبرز دور الروابط الحجاجية، لاسيما "لكن" و "إنما" في إحداث النجاح المرغوب فيه، وهكذا كانت السخرية الأدبية شكلا من أشكال الحجاج، فنحت منحنا تهكميا يصرخ ضد كل فساد أخلاقي، هدفه التأثير والإقناع.

ثم كان هذا الخطاب الساخر الحجاجي لعب بالكلمات، والمعنى فيه يتوارى خلف عباراته وتراكيبه، إذ عمد المعري كثيرا إلىإخفاء مقاصده عبر آلية المجاز، وفي مواضع قليلة كان يبين عن هذه المقاصد.

الهوامش:

(01) عبد الحميد شاكر ،الفكاهة والضحك رؤية جديدة، منشورات عالم المعرفة، مجلة المجلس الوطني للثقافة والفنونوالآداب، الكويت، (دط)، 2003، ص 51 .

(02) نبيل راغب، موسوعة الإبداع الأدبي، الشركة المصرية العالمية للنشر لو نجمان، مصر، الطبعة الأولى،1996، ص 179 .

(03) م، س، ص 179.

(04) محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية،2012، ص 100.

(05) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2014، ص 22.

(06) محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص110.

(07) م، س، ص 98.

(08) أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2011، ص 31 .

(09) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2004، ص 257 .

(10) جاك موشلارو آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة : مجموعة من الأساتذة والباحثين، إش: عز الدين المجدوب، المركز الوطني للترجمة، دار سيناترا، تونس، السحب الثاني، 2010، ص 92 .

(11) عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2012، ص 173 .

(12) صابر الحباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، الإصدارالأول، 2008، ص 18 .

(13) أمنية الدهري، الحجاج وبناء الخطاب، ص 35 .

(14) حسن المودن، بلاغة الخطاب الا قناعي، ص 167

(15) صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص 61 .

(16) محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 88 .

(17) م، س، ص 89 .

(18) أبو العلاء المعري، اللزوميات، تح: مجموعة من الأساتذة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د ط)، (د ت)، (ب :42)

(19) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2007، ص 73 .

(20) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، 2011، مادة (ع شر)، ص 159 .

(21) م، س، مادة (ق ت د)، ص 20.

(22) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 511.

(23) م، س، ص 511.

(24) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ص 73.

(25) اللزوميات، (ب : 42).

(26) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، شرح : ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، لبنان، (د ط)، 2002، ص 328 .

(27) اللزوميات، (هـ : 01).

(28) مجمع اللغة العربية المصري، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ص70 .

(29) اللزوميات، (ج : 25).

(30) م، س، (د : 35).

(31) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 528 .

(32) اللزوميات، (ب : 109).

(33) فأرة عظيمة يضرب بها المثل في السرقة، اللزوميات، ج1، ص 114.

(34) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 520.